

آليات التهذيب الدلالي في اللغة العربية

أ. سعيد عامر

جامعة مولود معمري، تيزي-وزو

مقدمة: ترفض الجماعة اللغوية استعمال بعض الألفاظ لما تتضمنه دلاليًا من حرج أو خوف أو غير ذلك مما لا ترتضيه الذائقة التفاضلية والأدبية، وفي إطار رفضها لتلك الألفاظ تحاول دومًا تقديم بديل ينوب عنها، يكون أقل حرجًا وفي ذات الوقت أكثر استساغة، أو ما يمكن وصفه بأنه بديل لغوي مهذب دلاليًا.

تُحاول المقالة تقريب خبايا هذا البديل اللغوي المهذب دلاليًا؛ عن طريق تبیین الآليات اللغوية التي تعتمد عليها الجماعة اللغوية أثناء هذه العملية الاستبدالية، غير أن هذه المحاولة التقريبية تلميحية لا غير؛ لأنها غيّبت ذكر الكثير من الآليات؛ كون التهذيب الدلالي لا ينحصر في قوالب محدودة، وإنما يتداخل مع كل ما يمت لمستويات اللغة المختلفة؛ النحوية منها والصرفية والمعجمية... إلخ؛ إذ ليس يُنسى أن القوانين اللغوية بحد ذاتها استساغات جماعية أجمع عليها المستعمل الجمعي وهي إذًا بديل مهذب مقبول لنقيض ركيك مرفوض.

إن آليات (أدوات) التهذيب الدلالي إذاً عديدة، لم تجتمع بعد نشرتها في مؤلف مُعَيَّن، فاستخرجها قرين الاجتهادات المبذولة، وهذه بعض منها، تُصاحب ذكرها أمثلة كثيرة؛ نزولاً عند المطلب المعهود: بالمثال يتضح المقال:

1- آليات بلاغية: وأغلب الظن أنها أكثر قوالبه؛ "فمن التشبيه؛ الحرث، في قوله تعالى ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي شِئْتُكُمْ ﴾ [البقرة: 223] ومن الاستعارة قول الرسول الكريم عن النساء: قوارير، في حديثه: يا أنجشة رفقا

بالقوارير. ومن المجاز المرسل: إطلاق لفظ الأهل على الزوجة فقط، وهو لفظ يشمل في أصله الزوجة والأبناء والآباء وغيرهم¹ ومن الكناية قولهم: بنى فلان بأهله؛ وذلك أن الرجل إذا أراد الدخول بأهله "بنى بيتا من آدم، أو قبّة أو نحو ذلك من الحجر، ثم يدخل بها فيه، فقيل لكل داخل بأهله: بنى فلان بأهله"² والتعريض مبصره في هذه الحوادث: "مرض الخليفة زياد بن عبد الملك، فدخل عليه القاضي شريح، ولما خرج سأله أحدهم: كيف تركت الأمير؟ قال: تركته يأمر وينهى. فقال: إن شريحا صاحب عويص فسألوه: فقال: تركته يأمر بالوصية، وينهى عن البكاء؛ أي عرض بأنه يحتضر"³ ومن التعريض أيضا "ما روي عن الصحابي أنس، قال: لما هاجر رسول الله، ركب أبو بكر رديفه، وكان أبو بكر يعرف الطريق لاختلافه إلى الشام، فكان يمرّ بالقوم فيقولون: من هذا بين يديك يا أبا بكر؟ فيقول: هاد يهديني. وكذلك ما روي عن مؤمن آل فرعون؛ حين سعى به رجلان إلى فرعون، فأحضره فرعون وأحضرهما، وقال للساعيين: من ربكما؟ قالا: أنت. فقال للمؤمن: من ربك؟ قال: ربي ربهما، فقال فرعون: سعيكما برجل على ديني لأقتله! فقتلها. قالوا: فذلك قوله تعالى ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 45] والتعريض هو ما نجا الحارث بن مسكين من القتل أيام المحنة؛ حيث كان ابن داود يمتحن الناس بخلق القرآن، فقال للحارث: أشهد أن القرآن مخلوق. فقال: أشهد أن هذه الأربعة مخلوقة وبسط أصابعه الأربع فقال: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. فعرض وتخلص من القتل"⁴ فقول الصديق: هاد يهديني؛ يحتمل معنيين؛ أحدهما: أنه دليل طريق؛ وهو ما فهمه السائلون، والثاني: رسول من الله يهدي إلى الحق، وذلك المتقصد. وفي قول مؤمن آل فرعون: ربي ربهما، تضليل دلالي للسامع؛ إذ فهمها فرعون على مقاس ما سبق من اعتراف الساعيين؛ حين قالوا: أنت ربنا، ولكن المؤمن قصد الحقيقة الفطرية الإيمانية؛ من أن ربه هو الرب الحقيقي لهاذين الكافرين به. أمّا الحادثة

الأخيرة فكانت تعريضاً بالأصابع وتمويهاً بها؛ فالأصابع الأربعة المستخدمة في الإشارة إلى تلك الكتب السماوية مخلوقات ربّانية بلا ارتياب؛ خلقها الله يوم خلق سائر الجسد، وهذا ما أراده العالم السني الحسن بن حارث، لا ما فهمه المعتزلي ابن داود؛ من أنه يقول بأن القرآن وغيره من كلام القدير سبحانه مخلوق، وما اضطر هؤلاء إلى التعريض إلاّ مخافة أن يُنكَل بهم، فالتعريض مندوحة عن الكذب، يحتمي به المعرض من معنى يُريده، قد يُريده، بآخر لا يرمي إليه، لكنه يُنجيه.

ولخروج الأساليب البلاغية عن مقتضى ظاهرها علاقة بالتهذيب الدلالي أيضاً؛ فالذم بما يُشبه المدح من وسائل العرب المحبوبة في نعت الثقلاء والبخلاء والجهال والأعداء وأصحاب الأخلاق الخسيسة، فتلقاهم يقولون لمن يكرهون: "أرانيه الله أغرّ مُحجلاً؛ أي مُقيداً أسيراً؛ فظاهر اللفظ المدح، وباطنه الذم. ويقولون للجاهل: يا عاقل، وفلان صافي العيش، من قبيل التّبكيّت⁵ فكراهم لأسماء ولصفات هذه الفئات، أرغمهم على تجنبها ببدايل ظاهرها يُرضي تلك الأصناف، وباطنها يَعدُّ مثالبهم.

2- آليات نحويّة: يتوكأ التهذيب الدلالي على بعض القواعد النحوية لتحقيق غايته، وقد أقام له النحاة اعتباراً؛ حيث "تخلّصت كتب النحو في باب الأسماء الستة من الاسم السادس، وهو (الهنّ) وهو ما استنّج ذكره؛ لدلالته على عورة الرّجل أو المرأة، ولعدم استعماله للسبب ذاته"⁶ وفي تعاليقهم على أسباب حذف الفاعل، كانوا قد خلّصوا إلى وجه آخر من وجوه التهذيب الدلالي "فالفاعل يُحذف لمطالب عدّة؛ نظمها أبو حيّان قائلاً:

وَالْوَزْنَ وَالتَّحْقِيرَ وَالْإِعْظَامَ
وَالسَّجْعَ وَالْوِفَاقَ وَالْإِيثارَ⁷

وَحَذْفَهُ لِلْخَوْفِ وَالْإِبْهَامِ
وَالْعِلْمَ وَالْجَهْلَ وَالْاِخْتِصَارَ

فمطلبُ التعظيم، كخصلة من الأدب، يقتضي أحيانا حذف الفاعل؛ وقد أحكم علاقة هذا الأمر بالتهذيب الدلالي هادي نهر بقوله: "ومن التَّادُّبِ في الخطاب حذف الفاعل عند ذكر أمور محرمة مُستقبحة؛ قال تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا أُهْلِيَ لغيرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقٌ﴾ [المائدة:3]⁸" فالله جلَّ علاه لم يذكر فاعليته في تحريم هذه المستنذرات تعظيماً لاسمه، وتزويهاً له من أن يُذكر إلى جنبها. أمّا حذف الفاعل لعلّة الخوف، التي هي إحدى علل التهذيب الدلالي أيضاً "فيكونُ من خشية المتكلم أن يناله مكروه، إذا أورد الفاعل، وقد ساق ابن يعيش لذلك مثالا وهو: قُتِلَ زيدٌ، وقال: لم يُذكر الفاعل خوفاً من أن يؤخذ قولك شهادة عليك"⁹ وفي الخوف من الجنّ والسّحرة، ما يلزم العامة على تجنّب النطق بالفاعل (الجنّ والسّحرة) فالمُصاب بأذاهم يقولون عنه: صرّع فلان، وأصيب فلان، وسُحر فلان. فالعدول عن ذكر الفاعل للخوف أو للتعظيم، والاستعاضة عن ذلك بنائب الفاعل من وسائل التحسين الدلالي.

3- الآليات الصرفية: كالتصغير ابتغاء التحقير؛ لأنّ "التّصغير هو تحويل الاسم المُعرَّب إلى صيغة فُعِيل أو فُعِيلِل أو فُعِيلِلِل، للدلالة على صغر حجمه، أو حقارته أو قلته أو قرب زمانه أو مكانه، أو تدليله وتحبيبه أو تهويله"¹⁰ فانصراف التّصغير إلى أغراض أهمّها التحقير ممّا يُحوّل له أن يكون ضمن وسائل التهذيب الدلالي، وتقريب ذلك بمثال: شُويعِرَ تصغيرٌ لشاعر على سبيل الاحتقار والازدراء؛ يعمد المخاطب عن طريقه إلى حرمان الموصوف به من امتلاك موهبة الشعر؛ بأنّ صغر من شأنه؛ فالممنوع هو دلالة لفظ الشاعر، والبديل هو مدلول الاحتقار في مُصغَره شُويعِر. ولابن عصفور مثال آخر، قال: "فإذا قلت: رُجِيلٌ؛ فمعناه رجلٌ حقير"¹¹ فالمعنى المُتجنّب في هذا التّصغير هو الرّجولة، والمعنى المُستبدل له هو قلة الرّجولة في المُنادى به. وقد يتهاوى إلى الأذهان أنّ التّصغير للاحتقار يتصادم

مع التهذيب الدلالي، الذي جاء لتلطيف الدلالات، والرد على ذلك: إنّ التصغير للاحتقار، عادةً ما يأتي لنقض صفاتٍ مرذولة كالكبر والعنوّ... عن طريق احتقار المتكبر بتصغيره؛ فمدّعي الرجولة أو الشعر بلهجة الغرور والتكبر، تكون الدلالة الناجمة عن تصغيره إلى شويعر ورُجِيل أطف من الدلالة التي ارتأها لنفسه؛ أي أطف من دلالة الرّجل المتغطرس، ومن دلالة الشّاعر الجبار. فالتصغير للاحتقار آليةٌ للتلطيف الدلالي؛ إذا كان الاحتقار المتولّد عن ذلك التصغير يُهذّب الدلالة ومنفعته أكبر من مضرّته، وإلاّ فهو اختصار لا يُساير غاية التهذيب بتاتا، والسّياق هو الكاشف عن ذلك، ففي سياقاتٍ عديدة يكون التصغير للاحتقار مُرحباً به دوماً بل وأكثرُ مسaire للتهذيب الدلالي، ففي المذلهّمات "كملاقة الأعداء، أو اصطيد أسد مثلاً، قد يبعث أمر تصغير اسمه إلى أسيد احتقاراً إلى التشجّع والانكباب عليه فالعرب إذا أرادت أن تقلّ من شأن شيء لتقدّم عليه لجأت إلى التصغير"¹² فتكون الدلالة المضخّمة قبل التصغير مُتجنّبة، وبديلها الدلالة الناجمة عن الاحتقار الدافعة إلى الإقدام والجرأة.

وللتهذيب الدلالي استعانة بالاختصار؛ كون المختصرات في مجاله لا تختزل اللفظ فحسب، وإنّما حتّى المعنى المُتحرّج منه "فالاختصار وضع صيغة على وزن يسمح به نظام اللغة، لتقوم مقام كلام آخر على سبيل الإيجاز"¹³ إيجاز لا يُنقص المعنى، إلّا مع المُحسن الدلالي أحياناً؛ ففي قوله تعالى ﴿وَرَأَوْتَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: 23] يذكر الزمخشري أنّ "الأصل في عبارة: هَيْتَ لَكَ، هو تهَيَّأت لك، أو هيَّأت نفسي لك"¹⁴ فاختصار ذلك إلى المقروء في الآية، نفّض عنه الإيحاءات الجنسية، وأبقى على ما يؤكّد حصول المرادة، دون إيقاظ التّصورات، أو الاستعلام عن الكيفيات. والاختصار كذلك درعُ الصّحفي، التي تقيه من التّبعات المُصاحبة لنشر المقالات الناقدة

فباختصاره لما يُشير إلى هويته؛ كأن يكتب: ف. سمير، أو: ب.ع... إلخ، يكون قد أمّن نفسه ببديل مفتوح على كل الاحتمالات التأويلية.

وينتدب التهذيب الدلالي من مباحث الصّرف العربي آلية الإبدال اللغوي أيضا فهو يَتَصَدُّ له في أمر إحلال لفظة مكان أخرى، بما هو أقل من ذلك؛ أي بتبديل الحروف فقط في الكلمة التي صارت منبؤة الدلالة؛ لأنّ "الإبدال هو إقامة حرف مقام حرف آخر؛ بحيث يُحذف حرف ويوضع حرف آخر مكانه، من دون أن تُغيّر فيه الحركات"¹⁵ فمن كلام العرب عن مجامعة المرأة، قولهم: "ناكها ثم استبحوها فجعلوها: باكها؛ ثمّ هاكها، وهي حال قولهم في مضاجعتها: طرقها وخرقها وفرقها"¹⁶ وكذا "طمزها يطمزها طمزا؛ ثمّ طمسها يطمسها طمسا؛ ثمّ طحزها طحزا، أو طحسها طحسا؛ ودعسها دعسا؛ ودعزها دعزا"¹⁷ وليس ذلك بالمقصور على المنتمي للحقل الجنسي، وإنّما العرب تُبدّل في كلّ المجالات تقريبا، كعدولهم عن نعت الرّجل بالقصر "فقالوا: رجل قنّثر، ثمّ أبدلوه فقالوا: رجل كنّثر، وقالوا في صغير الجسم: قرشوم ثمّ قعشوم، وقولهم في ملك الحيرة؛ جذيمة الأبرص، بعد أن هابوه: جذيمة الأبرش"¹⁸ فالإبدال على ما يبدو وسيلة ترميم ناجعة للكلمات التي استفحشت دلالاتها، تسدّ الخلل ببدائل حرفية، تُريح في حالات عديدة الجماعة اللغوية من عملية البحث عن بدائل لفظية.

4- آليات مُعْجِية: وفي مقدّمتها الافتراض اللّغوي؛ لأن أصحاب اللسان الجامع يَقلُّ شعورهم بالخرج، الذي تُسبّبه الموضوعات المموجة، أثناء خوضهم فيها بلسان غير لسانهم، أو على الأقل أثناء افتراضهم لبعض الكلمات الأجنبية المُعبّرة عن الدلالات التي يتحرّزون من استعمال عبارات لغتهم في تأديتها، وهذه الأداة عالمية، لا تُدبّر عنها أية لغة، وإنّما هي خصيصة جامعة لكل اللّغات الطّبيعية "ففي اللّغات الأوروبية تُعتبر كلمة شمال من الأشياء التي تقترن بالخوف

والتشاور، ولذا تلجأ هذه اللغات لنوع من تحسين اللفظ، وذلك باستعارة كلمة أجنبية لتعبر بها عن المعنى، فنرى اللغة الإسبانية تستعير كلمة *izquierdo* من لغة الباسك، للتعبير عن معنى الشمال، وتستعير اللغة الفرنسية كلمة *gauche* من الألمانية والتي تعني حرفياً الطريق الخطأ، كما تعرف اللغة اليونانية مجموعة من الكلمات المحسنة لكلمة شمال، أغلبها مأخوذ عن اللغة الإنجليزية مثل: ذو الاسم الحسن *of good name*، والفأل الحسن *of good omen*، والمبجل *honoured* والمحظوظ *for tunate*¹⁹ و"لقبائل النيوب (Nup) في غرب إفريقيا كلمات عربية؛ كالجماع والقفا، بدلا من الكلمات الدالة على نفس المعاني في لغتهم"²⁰ وغالبا ما تُقترض الكلمات الأجنبية مُحْتَقَظَةً بكل خصائصها، دون أن تُعَرَّب، بل قد يكون لها مقابلات في العربية، لكن المتكلم يُؤثرها عليها، ويقيها في حلتها الأجنبية تامةً غير مُتَصَرِّفٍ فيها؛ نحو قولهم في اللهجة الجزائرية: "ضربني بالروبيني (robinet) فكلمة (robinet) تعني حنفية، وهم هنا يستعملونها استعمالاً مجازياً، يُقصد بها عين الحسود؛ أي أصابتي عينه الحسودة، أو كتفضيلهم لكلمة التشيبا (chipa) وهي كلمة إسبانية مرادفة لما كان يُستعمل في الجزائر باسم: القهوة، المعرفة، البيروقراطية. وبفعل عامل الحياء القارّ في الأعراف، يعدل المتغزلون في الشوارع عن الألفاظ العربية؛ لتذكيرها لهم بتلك الأعراف المُتَخَلِّقَة، فتطغى على غزلياتهم الكلمات الأجنبية مثل: *madama, petit suisse, les nana, la tchitchi, papiychat*²¹ ومن أشهر الأمثلة التي تداولتها كتب اللغويين العرب في هذا الصدد كلمتي: فيسي *w.c* وتواليت *toilette* كمقتبسات عن الألسن الأجنبية، بايعتها أفواه العرب؛ بتوظيفها لها على ما هي عليه لفظاً ومعنى.

ويتوسل التهذيب بالغريب من اللغة، كثنائي قضية معجمية يهوى استغلالها، علماً أن الساحة البلاغية والتواصلية تنأهتا إلى النهي عن استخدامه للإيهام الذي ينوط به، غير أنه في موضوع التهذيب الدلالي من الأدوات الصالحة؛ فالكلمات ذات الدلالات المنفرة، يتحايّل عليها الناس في كلّ بيئة باصطناع غيرها من ألفاظ قليلة الشروع؛ أي غريبة ومهملة الاستعمال رغبةً في أن تُصبح الصورة مغطاةً بستار رقيق، يُخفي شيئاً من معالمها، ويُقلّل من وضوحها، فلا تחדش الحياء، ولا تبعث على النفور والاشمئزاز "ومن جوامع الكلم التي عرّف بها الغريب قول الخطّابي: الغريب من الكلام هو الغامض البعيد من الفهم، كما أن الغريب من الناس؛ إنّما هو البعيد عن الوطن، المنقطع عن الأهل، والغريب من الكلام يُقال به على وجهين:

أحدهما: أن يُراد به بعيد المعنى الغامض، الذي لا يتناوله الفهم إلّا عن بُعدٍ ومُعاناةٍ فكر.

والوجه الآخر: أن يُراد به كلام من بُعدت به الدار من شواذ قبائل العرب، فإذا وقعت إلينا كلمة من لغاتهم استغربناها²² وهذه الأوجه المتحدّث عنها، سيُدرّكها القارئ الكريم في المهدّبات الدلالية الآتية: جاء في تفسير قوله جلّ علاه عند قصة يوسف ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: 31] أن الإكبار في الآية بمعنى الحيض "يُقال: أَكْبَرَتِ المرأة؛ إذا حاضت، وحقيقته: دخلت في الكبر؛ لأنّها بالحيض تخرج من حدّ الصغر إلى حدّ الكبر"²³ ويعضد ابن منظور هذا المعنى الغريب لكلمة الإكبار، فيقول: "وروي عن مجاهد أنّه قال: أَكْبَرْنَهُ؛ حضن، وليس ذلك بمعروف في اللغة، وأنشد بعضهم:

نَاتِي النِّسَاءَ عَلَى أَطْهَارِهِنَّ وَلَا نَاتِي النِّسَاءَ إِذَا أَكْبَرْنَ إِكْبَارًا

وروي عن أبي الهيثم أنه قال: سألت رجلاً من طيء، فقلت: يا أخا طيء، ألك زوجة؟ قال: لا والله ما تزوجت، وقد وعدت في ابنة عم لي. فقلت وما سنّها؟ قال: قد أكبرت أو كبرت، قلت: ما أكبرت؟ قال: حاضت. قال أبو منصور: فلغة الطائي، تصحح أن إكبار المرأة أول حيضها²⁴ وفي قوله تعالى عند قصة إبراهيم ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: 71] فسر ثلّة من المفسرين عبارة: فَضَحِكَتْ؛ بأنها حاضت. اختار القرطبي هذا المعنى فقال: "قال مجاهد وعكرمة: فضحكت؛ حاضت، وكانت آيسة، تحقيقاً للبشارة وأنشد لذلك اللغويون:

وَإِنِّي لَأَتِي الْعُرْسَ عِنْدَ طُهُورِهَا وَأَهْجُرُهَا يَوْمًا إِذَا نَكَ ضَاحِكًا

والعرب تقول: ضحكت الأرنب؛ إذا حاضت. وأتم القرطبي هذا البيان بأن ساق استغراب اللغويين من لفظ الضحك بهذا المعنى، يقول: وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت، وقال الجمهور: هو الضحك المعروف²⁵ ومن أغرب المحسنات اللفظية في القرآن الكريم "قول قتادة في قوله تعالى ﴿وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: 286] هو الغلّمة، وعن عكرمة ومجاهد أنهما قالوا في معنى قوله تعالى ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28] أنه لا يصبر على النساء، وفي نوارد التفسير عن ابن عباس ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: 3] قال: قيام الذكر وانتصابه²⁶ ولقد ألف العرب هذا الإبهام في مجالات المذهب الدلالي وأحبّوه، وأدمنوا عليه، ولو تنادت العزائم إلى جمع ألفاظهم الجنسية وحدها، لتأكد أمر ولعهم بالغريب اللغوي، فمخاطب يحيى بن يعمر لم يشتك بتاتا الحرج أو حتى سوء الفهم؛ حين شرع يحيى يؤنبه عن مخاصمته لزوجته قائلاً: "إِنْ سَأَلْتُكَ ثَمَنَ شُكْرِهَا وَشُبْرَكَ، أَنْشَأْتَ تَطْلُهَا وَتَضْهُلُهَا؟! فَالشُّكْرُ؛ الْفَرْجُ

والشبر؛ النكاح، وهما من وحشيّ اللغة²⁷ وبهذا يستعيدُ غريب اللغة حيويّته، دون عقدة أنه من الشاذ، فشذوذه في مقام التهذيب هو الذي يجذب الجماعة اللغوية إليه. تستند عملية التلطيف الدلالي أيضا على إمكانية إتباع بعض الألفاظ الغير مرغوب فيها بلوازم لفظية، فتكون تلك اللوازم أشبه بالاستعاذه؛ تبعثُ في المستعمل الطمأنينة، وتجعله يستشعر الحصانة، فالشياطين والجن وما في زمرة السحر والشعوذة ممنوعات كلامية، تظن الأوساط الشعبية أنّ التقوّه بها، ما هو إلاّ تعويذة لاستحضار شرورها، لذلك لا يسهون أبدا عن إردافها بلوازم وقائية؛ كالعياذ بالله ونجّانا الله، وعافانا الله، حتّى مُسلمين مُكتفين... ولربّما هذا محلّ تصديق ما زعمه أولمان (Olman) من أنّ بعض الكلمات تمتلك قوّة سحرية، بوسعها إلحاق الأذى بالآخرين، وأخرى تحوز على مضادات من ذلك²⁸ وللإشارة فللجاهلي لازمة تتجلى في قوله للعدو دقيقة لُقْيَاه، وللخلوات إذا أُمست مأواه (خوفا من الجن): حَجْرًا محجورا أي حرامّ عليك التّعرض لي، وعلى هذا فُسّر قوله تعالى في المشركين ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: 22] أي يتعوّذون يوم القيامة من الملائكة "ومن مظاهر هذا الأمر، تلك العبارات التي تُطلقها المصريات، لو نطق أمامهن -ولو على سبيل الحكاية- اسم مرض خطير؛ كالسل أو الحمى، فيقلن: الشرّ برّه وبعيد، أو صلّ على النّبي، أو اللّهم احفظنا²⁹" وإذا كانت هذه المجاورات اللّغوية مبرّرة الاستخدام، فإنّ حالات أخرى تُعدّ من قبيل المبالغة والتشدد؛ ذلك أنّ اللفظ المُتخوّف منه قد استُبدل أصلا بآخر أرقّ وألطف ولكنّهم رغم ذلك يستمسكون بمده بتلك الاستعاذات، فيقولون عن المشعوذ: سيدي الشّيخ ربّي يسترنا، وعن مرض نقصان المناعة (السيدا): مرض العصر وقانا الله ووقاكم... وليست هذه اللّوازم حبيسة الألفاظ المُتخوّف منها، وإنّما هي قسمةٌ بينها وبين متطلّبات التّأدّب؛ فالحمار والكلب والخنزير لاستنقارها

والأذن لِنَقْذِيهَا، والأنف لِنَتَحَمُّهَا، والفم لِبُصَاقِهَا، والنعال لَاتَسَاخِهَا... كُلُّهَا مِمَّا يُتَبَعُ بمهَوَّنَات خَسَاسَتِهَا، فيُقَال بعدها: حَاشَاكُمْ، أَكْرَمَكُمْ اللهُ، رُفِعَ قَدْرُكُمْ...

5- آليات أخرى: وهي الآليات يتعدّر تصنيفها في مستوى لغوي دون آخر؛ لدخولها فيها جميعاً؛ كالتعمية التي بإمكان اللبيب إنشاء مُعَمَّهَا، باستخدام الأدوات النحوية، أو الأوزان الصرفية، أو القوانين الصوتية أو الدلالية. والتعمية ما أخذت هذا الاسم إلاّ عن إحدى الطقوس الجاهلية؛ والتي يُروى فيها "أنّ إبل الرجل إذا بلغت ألفاً، فقاً عين الفحل، فسمّوا ذلك التّفقّة، فإنّ زادت على ذلك فقاً العين الأخرى؛ فهي التعمية، ويزعمون أنّ ذلك يدفع العين عن الإبل³⁰" أمّا التعمية كمصطلح لساني فهي تعني "عملية تحويل نص واضح إلى نصّ غير مفهوم باستعمال طريقة محدّدة، يستطيع من يعرفها أن يعود ويفهم النصّ، لقد دُرِجَ في أيامنا هذه على استعمال كلمة التّشفير بدلا منها³¹" فهي ضالّة أخرى للتهذيب الدلالي؛ لِمَنَاح الغموض الذي يسودها، وقد صيغت على سبيل التعمية لطائف لغوية عديدة "كقول عائشة للنبي: أَرَأَيْتَ لو نزلت واديا فيه شجرٌ أَكَلَ منها، ووجدت شجراً لم يؤكل منها، في أيّها كنت ترعى بعيرك؟ قال: في التي لم يُرتع منها. تعني بالشجر التي لم يؤكل منها؛ المرأة البكر، وتقصد نفسها؛ لأنّها بكرُ النبي الوحيدة وتعني بالمأكل منها: المرأة الثيّب، وهنّ بقايا نساء النبي. ومن التعمية عن مجامعة المرأة ما ورد في قصّة طويلة، أنّ امرأة اشتكت إلى الخليفة عمر بن الخطاب قلّة مجامعة زوجها لها بعبارات لم يفهمها عمر، وفهمها كعب الأسدي فاستدعى عمر زوجها، وحكّم على قضيتّهما كعباً، وقد علّل الزوج نأيه قائلاً:

زَهَدْتُ فِي فِرَاشِهَا وَفِي الْحَجَلِ إِنِّي امْرُؤٌ أَذْهَلَنِي مَا قَدْ نَزَلَ
فِي سُورَةِ النَّملِ وَفِي السَّبْعِ الطُّوَالِ وَفِي كِتَابِ اللهِ تَخْوِيفٌ جَلَلٌ

ليقطع كعب ببيت مُعَمَّى عن الجماع قائلاً:

أَنَّ لَهَا حَقٌّ عَلَيْكَ يَا رَجُلُ تُصِيبُهَا فِي أَرْبَعٍ لِمَنْ عَقَلَ

ولأنّ الزوج لم ينفذ إلى حلّ الأحجية، استأنف كعب تفصيلها قائلاً: إنّ الله قد أحلّ لك من النساء مثني وثلاث ورباع، وتلك ثلاثة أيام تعبد فيهن ربك، ولها يوم وليلة. والسعي إلى إشباع النّزوات أوجب على مجيبة الأعرابي -في القصة الآتية- اعتماد أسلوب التّعمية، فقد حكى أنّ أعرابياً بعث غلاماً له إلى امرأة يُواعدها موضعاً يأتيها فيه، فذهب الغلام وأبلغها الرسالة فكرهت المرأة أن تُقرّ للغلام بما بينهما، فقالت: والله لنن أخذتك لأعركنّ أدنك عركة تبكي منها وتستند إلى تلك الشجرة، ويُغشى عليك إلى وقت العتمة. فلم يعرف الغلام معنى هذا الكلام وانصرف إلى صاحبه، وحكى له، فعلم أنّها واعدته تحت الشجرة وقت العتمة³². وبتعمية القول يكون المعنى المرئول قد استبعد نهائياً، ولكن دقة الإلغاز في هذا التهذيب المعمى، ترك نسبة الإقبال على توظيفه ضئيلة، إلّا مع أهل المُجون؛ فقد تواضع أولئك على لغةٍ تعنيهم هم ومن والاهم، تُعبر عن عالمهم، لذلك يصعبُ إيجاد تخريجٍ دلالي لهذا النوع من التهذيب المعبر عن العلاقات الجنسية الشاذة والمحرمّة.

مع ظهور كتب منهجيات إعداد الأبحاث، حظي التهذيب الدلالي بأداةٍ أخرى ميزتها هذه المرّة أنّها كتابية، تتجسّد في إحدى علامات التّرقيم، وهي النقاط الثلاثة (...). فمن بين وظائفها أنّها "تُستعمل في ما يقبَح ذكره: فلتأكل الحجر يا.../ لا أتكلّم مع ذلك...³³" ولبعض اللّغويين حديثٌ عن طرائق أخرى، كاعتماد أشباه التّرادفات، أو توسيع الدّلالة أو تغييرها، يتعدّر هنا سردها مخافة الإخلال بشرط الإيجاز الذي تشترطه المقالات العلمية.

الخاتمة: أحسب أن هذا القليل المُورد، المنصرف إلى بيان آليات التهذيب الدلالي، قد يُحيط المهتم بجملته من النتائج، أهمّها:

- إنّ التهذيب الدلالي ظاهرة لغوية أصيلة في اللغة العربية، تتدخل في توجيه الدلالة وفق ما ترتضيه الجماعة اللّغوية.

- تستنفذ هذه العملية التهذيبية قوالبَ نحوية وصرفية ومعجمية وغيرها، ما يعني أنّ كثيراً من هذه القوانين اللغوية ذات صلة وطيدة بظاهرة التهذيب، وهو ما قد يأخذ إلى استنتاج أبعد؛ ألا هو أن اللغة في مرحلة معينة من جانبها النشوئي أيضاً متطورة عن قوانين لم تك تراعي هذا التهذيب الدلالي.
- تفتح هذه الظاهرة بوابة التساؤل عن مدى استقرار الاصطلاحات اللغوية للمؤسسة اللغوية، فما يلاحظ أن الألفاظ التي تتوضع عليها الجماعة للدلالة على مدلول ما، سرعان ما تهجر إلى غيرها، وهو الأمر الذي يستدعي إعادة النظر في المقصود بمصطلح "التواضع اللغوي".
- كما تشرع هذه الظاهرة بوابة أخرى لتحريّ مواضيع متعلقة بها، هي أكبر منها بل سبب في نشوئها؛ كموضوع الحظر اللغوي والإضمار الدلالي والممنوع اللغوي، والمسكوت عنه في القوينة اللغوية... إلخ.
- الهوامش:**

- 1 - عصام الدين عبد السلام أبو زلال، المحظور اللغوي في القرآن الكريم، ط1. القاهرة: 2004، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ص 80.
- 2 - عثمان أبو الفتح ابن جنّي، الخصائص، تح: محمد علي النّجار، د ط. القاهرة: 1952 المكتبة العلمية، ج 1 ص 39، 40.
- 3 - أحمد بن محمد أبو العباس الجرجاني، المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء، ط1 بيروت: 1994، دار الكتب العلمية، ص 55.
- 4 - جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي، كتاب الأذكياء، ط1. القاهرة: 2011، دار ابن الجوزي ص 19، 89، 90 (بتصرف).
- 5 - أحمد بن محمد أبو العباس الجرجاني، المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء، ص 5، و 67.
- 6 - عبد القادر حسين لافي وداد غطّاشة، علم الدلالة والمعجم العربي، ط1. عمان (الأردن): 1989، دار الفكر للنشر والتوزيع، ص 68.

- 7 — عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، كشكول ابن عقيل، ط1. الرياض: 2009، دار ابن الجوزي، ص243.
- 8 — هادي نهر، علم الدلالة التّطبيقي في التّراث العربي، ط1. عمان (الأردن): 2007، دار الأمل للنشر والتّوزيع، ص424.
- 9 — كريمة مصطفى، مالم يُذكر فاعله في القرآن الكريم، أطروحة دكتوراه، إشراف: طاهر سليمان حمودة. جامعة الإسكندرية: 2001 (367 صفحة) ص200.
- 10 — إبراهيم قلاتي، قصة الإعراب، د ط. الجزائر: 2009، دار الهدى للطباعة والنشر، ص489.
- 11 — www.lissanarabe.sa يوم: 2013/12/26م، الساعة: 11:15.
- 12 — www.lissanarabe.sa يوم: 2013/12/26م، الساعة: 12:00.
- 13 — عبد الله جاد الكريم، الاختصار سمة العربية، د ط. القاهرة: 2006، مكتبة الآداب، ص24.
- 14 — جار الله محمود أبو القاسم الزمخشري، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل تح: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوّض، ط1. الرياض: 1998، مكتبة العبيكان، ج3، ص267.
- 15 — أمّا طريبيه، الإبدال معجم ودراسة، ط1. بيروت: 2005، مكتبة لبنان ناشرون، ج1، ص5.
- 16 — قدامة بن جعفر، جواهر الألفاظ، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، د ط. بيروت: د ت المكتبة العلمية، ص435.
- 17 — عبد الواحد بن علي أبو الطيّب اللغوي، كتاب الإبدال، تح: عزّ الدين التّنوخي، د ط. دمشق: 1960، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ج2، ص119.
- 18 — للاستزادة يُنظر: المصدر السّابق.
- 19 — كريم زكيّ حسام الدين، المحظورات اللغوية، ط1. القاهرة: 1985، مكتبة الأنجلو المصرية، ص32.
- 20 — نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة نايف خرما "أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة" سلسلة عالم المعرفة. الكويت: 1978 المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ع 9، ص201.

- 21 — رضا دغبار، لغة الشباب بالجزائر العاصمة حي باب الوادي نموذجاً تناول سوسيولساني بحث ماجستير، إشراف: خولة طالب الإبراهيمي. جامعة الجزائر: 1998/ 1999، ص172 (بتصرف).
- 22 — تامر مبروك، الغريب في أشعار عصر الانحطاط، د ط. بيروت: 1994، منشورات مكتبة المثنى، ص19.
- 23 — الزمخشري، تفسير الكشاف، ج3، ص278.
- 24 — جمال الدين أبو الفضل بن منظور، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، د ط القاهرة: د ت، دار المعارف، مادة (كبر).
- 25 — محمد أبو عبد الله القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنته من السنة وآي الفرقان، تح: عبد الله التركي ط1. بيروت: 2006، مؤسسة الرسالة، ج11، ص163، 164 بتصرف.
- 26 — إبراهيم محمود، الشبق المحرم أنطولوجيا النصوص الممنوعة، د ط. بيروت: 2002 رياض الرئيس للكتب والنشر ص 88.
- ♣ — تأويل ابن عباس للآية على هذا الوجه، قد يُستكر عند من يعتقد أن الغسق هو حلول الليل فقط وإنما الغسق أيضا سيلان السوائل؛ يقول صاحب المُرْهَر: "وكذلك غسق؛ يقع على معنيين مختلفين؛ أحدهما أظلم من غسق الليل والآخر سال من الغساق، وهو ما يغسق من صديد؛ أي يسيل" عن: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، المزهَر في علوم اللغة وأنواعها، ضبطه وعلّق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرون، ط3. القاهرة: د ت، مكتبة دار التراث، ج 1 ص399. والغسق على هذين المحملين الدلاليين، مما يخدم مذهب ابن عباس في الآية؛ فأكثر ساعات مطارقة النساء تكون مع دخول الليل، ثم إن انتصاب الجهاز الذكري طالما يعقبه سيلان المذي أو المنى.
- 27 — عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري، أدب الكاتب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد. القاهرة : 1963، المكتبة التجارية، ص13.
- 28 — ينظر: ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، مبحث التطور اللغوي.
- 29 — محمود السّعران، اللغة والمجتمع رأي ومنهج، ط2. القاهرة: 1963، دار المعارف ص131.

- 30 — أحمد أبو العباس الفلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، د ط. القاهرة: 1922، دار الكتب المصرية، ج1، ص403.
- 31 — محمد مراياتي وآخران، علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب، د ط. دمشق: د ت مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ص28.
- 32 — ابن الجوزي، كتاب الأذكياء، 146، 147، 152 (بتصرف).
- 33 — صالح بلعيد، في المناهج اللغوية والمنهجية، د ط. الجزائر: 2013، منشورات مختبر الممارسات اللغوية، ص 95.